الأهرام
٦٥/١/١١

موسيقى

بقلم
سليمان جميل

"أم كلثوم" .. بين اللحن القديم واللحن الجديد لقصيدة "أراك عصي الدمع"

والحق ان صوت أم كلثوم يتميز بأنه مشحون بروح ببئتنا ، ان صوتها تفتح على ترتيل القرآن ، ودرب على النطق الصحيح للغة العربية ، ودرب ايضا على ابعاد اصوات هذه اللغة في الحان الموشحات والقصائد الدينية . وظلت أم كلثوم طوال عمرها الموسيقى تتذوق ألوان مقامات الموسيقى العربية وفيها ابعاد النغم الشعبي ، وتنمي قدرتها على تجسيد الوان النغم في خيالها ، وهكذا ابدعت أم كلثوم اسلوبها في تنويع الحان الاغنية التي تغنيها ، وام كلثوم تبتكر هذه التنوعات اللحنية من وحي اللحظة التي تغني فيها امام الجمهور . وهذا دليل على **فطرتها الموسيقية الاصيلة** . الحقيقة ان ام كلثوم شخصية موسيقية جديرة بالدراسة واهتمام الباحثين في بلادنا، ذلك لانها فرع حي من نهر موسيقانا الشعبية ، انها تعكس الروح الشعبية ، تعكس خلجاتها بطبيعة صوتها واسلوبها في كل اغنية تؤديها . ويعتبر الملحن الراحل **زكريا أحمد** هو اقرب الملحنين الى الروح الشعبية في صوت واسلوب أم كلثوم ، ان معظم الحانه مبنية من لغة الايقاع النابعة من لهجة الناس في الكلام والسلوك اليومي في الحياة ، وهكذا كان سيد درويش ، لكننا عندما نستمع الى لحن « **أراك عصي الدمع** » الذي لحنه زكريا احمد سوف لا نجد فيه لهجة الايقاعات الشعبية التي نجدها مثلا في اغنية « **الهوى غلاب** » او اغنية « **انا في انتظارك** » . وهذا لا ينفي ان **اللحن القديم** لقصيدة « اراك عصي الدمع » يعيش في ذاكرتنا لانه لحن صادق. ان لون النغم الرئيسي في اللحن القديم هو لون المقام الموسيقي الشعبي المعروف « **بمقام البياتي** » ، وغير النغم فاننا نجد في اللحن القديم عنصر الاداء القرآني ، وهو عنصر يميز اسلوب تلحين القصيدة الغنائية التقليدية . ان زكريا احمد استخدم القواعد التقليدية في تلحين قصيدة « اراك عصي الدمع » واهم هذه القواعد تكوين اللحن من مقاطع زمنية متساوية وهذا التشابه في المقاطع الزمنية يخلق نوعا من قافية الايقاع المتشابهة في تكرارها واثرها لقافية الشعر العربي التقليدي

وقصيدة «اراك عصي الدمع» تلتزم هذه القافية .. « ولا أمر » « له سر » « خلائقه البسكر » « الصبابة والفكر » « فلا نزل القطر» شيمتها الغدر » . ان الايقاع في لحن زكريا احمد لقصيدة « اراك عصي الدمع » يلتزم قافيتها ، بجانب ذلك فهو لحن يعتمد على اظهار قيمة الحركة الصوتية الصعبة في حنجرة أم كلثوم، ومثال ذلك الحركة الصوتية التي نسمعها في كلمة « نعم » وتكرارها « نعم انا مشتاق وعندي لوعة » . ان أم كلثوم تركز صوتها على حرف « النون » ثم تصعد بصوتها على درجات نغمية اعلى ، وتهبط على نفس هذه الدرجات النغمية حتى الدرجة التي بدأت بتركيز الصوت فيها على حرف « النون » في كلمة « نعم » . مثل هذه **الحركات الصوتية الصعبة** اصبحت مع مرور الزمن هي **السهل الممتنع** في اداء أم كلثوم الغنائي . وخلق الحركة الصوتية الصعبة في تكوين الحان القصائد القديمة كان موضع اهتمام الملحنين لاعتقادهم انها تثير اعجاب المستمع كما انها تثبت مهارة المغني او المغنية في الاداء . لكننا الان نجد ان الملحنين لا يستخدمون الحركة الصوتية الصعبة لمجرد استعراض المهارة في الاداء ، وانما لخدمة التعبير الموسيقي ، ونحن نلمس ذلك في لحن قصيدة « اراك

عصي الدمع » الجديدة للملحن «رياض السنباطي». والواضح في **اللحن الجديد** هو الاسلوب المتحرر من النسب اللحنية التقليدية والقائمة الايقاعية المتشابهة في تلحين القصيدة القديمة . وهكذا بدأ **رياض السنباطي** تلحين القصيدة بمقدمة موسيقية في ايقاعات غير بارزة وتنساب مختفية في مجرى اللحن

والايقاع الحر يختلف عن الايقاع المنتظم الذي يبرز تقسيم اللحن الى اجزاء متساوية ، ونحن في العادة نهز رؤوسنا او نصفق بأيدينا مع الايقاع المنتظم ولا يحدث ذلك عندما نستمع الى الايقاع الحر في الموال مثلا ، اننا مع ايقاعات الموال الحرة نشعر بحالة من الهدوء والاسترخاء، والمقدمة الموسيقية في القصيدة الجديدة اخذت شكل التقاسيم بين البيانو والالات الاخرى . لكن **استخدام البيانو** في مقدمة « اراك عصي الدمع » ليس عملا فنيا هاما لانه لا ينتمي الى ابعاد شخصية هذه الالة الموسيقية ؛

والانسب ان تلعب الة **القانون** دور البيانو في المقدمة الموسيقية . وتلعب دوره الثانوي ايضا في الجزء الاخير من لحن القصيدة ولو عدنا بذاكرتنا الى **اللحن القديم** لقصيدة « اراك عصي الدمع » سوف لا نجد لموسيقى الالات أي دور يذكر ، بينما اللحن الجديد يعتمد على اللازمة الموسيقية التي تعزفها الالات ، وبواسطة هذه اللازمة قسم رياض السنباطي لحنه الجديد الى قسمين متناقضين ،

القسم الاول يحلق في خيالات عاطفية من نوع عاطفية الموسيقى الاوربية . **والقسم الثاني** انغامه وايقاعاته شعبية ويبدأ بلحن ينتظم الايقاع عندما تغني أم كلثوم « **معللني بالوصل والموت دونه** » وبعد هذا الجزء البارز الايقاع يبدأ اسلوب الايقاع الحر عندما تجسد أم كلثوم اداء الارغول وتغني « **قتيلك** . . **قالت أيهم فهم كثر** » ان التناقض في لون النغم او الايقاع انما يعني التعبير الموسيقي بشرط اساسي ، وهو احداث الانسجام بين العناصر الموسيقية التي يختارها الملحن من نغم او ايقاع ، وهذا الانسجام لم يتحقق في تلحين « **اراك عصي الدمع** » الجديدة . اننا مع ذلك نعيش اداء ام كلثوم في كل جزء من لحن القصيدة، نعيش حركاتها الصوتية المميزة مثلا في اداء انغام كلمة « **الصبر** » في مقطع « اراك عصي الدمع شيمتك الصبر ». او بانغام « **وهل لشجي مثلي على حاله نكر**» الخ وانكنا لم نسمع بعد اسلوب أم كلثوم المميز في ابتكار تنويعات النغم على اساس اللحن الجديدة لقصيدة « اراك عصي الدمع »

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية